إلى شباب القصصيين

كيف احترفت القصة

قصة الآنسة (ريلافيلر)

للأستاذ أحمد فتحي

لقد ظلت أول قصة كتبتها حتى اليوم بغير أن تنشر ، ومن ودي أن تبقى كذلك أبد الدهر دون أن تخرج للناس

ولقد كتبتها أيام كانت أحلام مثيلاتى من الطالبات منحصرة فى أن يتم للواحدة مرح الشابة « الأيرلندية » العابثة !. ومن المحقق أنني كنت متأثرة في قصتى الأولى بهذه الروح . وإنى لأذكر عنها القليل جداً ، ومن ذلك القليل أن البطلة كانت تسمى « بليس » وأنى جعلتها تموت وهى غضة السن : أعنى لم تعدُ السبعين ! بينما كنت أنا بين الثانية عشرة والرابعة عشرة. ولم يكن الحب — فى تلك الأيام — ليخطر على بال إنسان لم يودع عشرين ربيعاً من عمره

على أن كثيراً من المشاهد التى كنت قد بنيت عليها هيكل تلك القصة ظل عالقاً بذهنى مدى عشر سنوات كاملة ، تقمص بعدها إهاب قصتى الأولى الجدّية « زيللا »

* * *

وربما كان من الخير أن أشير هنا إلى أن قصتى الأولى « زيللا » لم تكن أكثر من دراسة « سيكلوجية » لفتاة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، كان عليها أن تعانى اضطراب وراثة مختلطة تضطرب بين انجليزية وفرنسية

وحينما فكرت فى أمرها أول الأمر وأنا فى غرفة دراستى ، كنت أوثر أن تكون لها نفس صافية ، بينما تفتقر إلى الخلق الشخصى القويم ، حتى أنها تخدع نفسها بنفسها ، وينتهى بها الحال إلى أن تعود غير خليقة أن تؤتمن على أية حقيقة على وجه الإطلاق

ولم تكن القصة التحليلية — حينذاك — قد عرفت سبيلها إلى الذيوع ؛ ولاسيما فى الأوساط الدرسية ؛ وبذلك كان اختيارى الطبيعى لهذا الطراز محدداً للمنهاج الذى التزمته ودرجت عليه فى مستقبل أيامى

ولقد علمت ، عامدة أو غير عامدة ، أن البطلة الأنموذج فيما كان تتاح لي قراءته من القصص ، لم تكن تمتّ كثيراً بمطابقة الحقيقة ومحاكاتها . حتى أن تلك القصة العظيمة التى كتبتها « مارى كولنديلى » باسم « الطعام الأحمر » والتى ضمنتها كثيراً من أروع الشخصيات ، لم تخل من هفوة أوشبه هفوة ، فى تصوير بطلتها « راشيل » فتاة خيرة راجحة العقل . فإن المؤلفة لم تشأ أن تبرز بطلة قصتها فى الصورة السمجة التى لا بد أن تكون عليها فى الحياة الواقعة ؛ وهذا سر ضعفها . بل لقد بلغ إبرازها بهذا الوصف الخير من الثقل حد الطغيان على باقى شخصيات هــذه القصة التى اختلط فيها الخير والشر مثــل اختلاطهما فى أفراد الجنس البشرى بغير استثناء !

ولقد أوليتُ هذه القصة « الطعام الأحمر » عناية فائقة ، لأنها كانت أول قصة عصرية حيوية أذكر أنى قرأتها بعين النقد وأعدت قراءتها مرات ومرات ، كما أصنع دائماً بالكتب التى أفضلها ، وبذلك استطعت أن أحللها بكل دقة ، فى حدود طاقة طفلة فى مثل سني حينذاك

ولقد وضح لى منذ ذلك الحين أن رغبات الناس وتأثراتهم حيال الظروف المختلفة أمر ليس من السهل أن يُقرأ ، أو يُكتبَ عنــه ، وأن تنزيه المؤلف لبطل قصته عن الأخطاء ، من أشنع الأخطاء ! وكذلك أنجيت بطلة قصتى « زيللا » من التعرض لمثل هذه المؤاخذة . والحقيقة أنه كان يروق لى أن أبرز نقائصها أكثر مما كان يروقنى إبراز ما فيها من فضائل ، فلم أكن أرغب مطلقاً أن أسمو بها عن المزالق الطبيعية التى يتورط فيها نظائرها من الشباب !

وبعد بضع سنين ، حين كانت القصة بين يدي الناشر ، كاشفته برغبتى فى تغيير اسمها باسم آخر رمزى هو « الحرباء » ولكنه ردّنى عن هذه الرغبة فى رفق ، زاعماً أن من القسوة على

البطلة أن أشبهها بهذا الحيوان البارد المتلوّن !

على أنه قد يوجهنى أن أضيف إلى ما تقدم أننى حين كتبت « زيللا » لأول مرة ؛ وقبل أن أبدل فيها كثيراً أو قليلا ؛ كنت قد ختمت فصولها بمأساة فاجعة . وكذلك كانت تختتم غالبية القصص التى قدر لى أن أقرأها إلى ذلك العهد . وعلى أى حال فقد كنت في سن لايتورع فيها الانسان من أن يبتسم للفواجع ! وإنما كنتُ فى الواقع أتوق من عاصرونى بجمل الفكرة فى قصة « زيللا » تمهّد لتصوير البطلة فى موقف مفاجأة عنيفة يتلخص فى اقتحامها بيتاً وهو يحترق ، كى تنقذ طفلا ؛ فاذا بها تجد نفسها طعمة للنيران فتحترق وتموت !

وأظن أنى شعرت فى غموض بأن وجود هـذا الطفل فى ذلك البيت المحترق ، يمالئ اقتحام الفتاة النيران بدافع غير سيّء ! حتى ولو لم يكن الدافع لهـا على ذلك هو روح بطولة ، وأؤكد أننى لم أتصرف تصرفاً كهذا فى حياتى ، مهما كان الدافع إليه مما يجعله — فى نظرى — على درجة عظمى من البطولة الحق ! !

على أننى قرأت بعد ذلك بأمد ، كتاباً للمستر « روبرت هيوبنس » اسمه « الجبان » انتهى أمر بطله إلى نفس تلك النهاية ذاتها ، غير أن الصورة النفسية فيه كانت أقلّ رداءةً ! كما أنى قبل أن أضع لختام قصتى فكرة احتراق البيت ، كنت أنوى أن أختتمها بانتحار البطلة ! وكانت خاتمة كهذه خليقة بإنجاح القصة فى نظرى !

* * *

وبعد أن لبثت هذه الخواطر الفجّة المتداعية متأرجحة فى ذهنى ست سنين أو سبعاً ؛ نتج منها آخر الأمر شيء له هيكل « القصة » ... على أن عملى لم يكن ليتجاوز تصوير بعض الشخصيات التى خالطتها وخبرتها من كثب وتأثرت بها فى مدارس الرهبنة

وإنى لأذكر جيداً أنى لم أنفق أكثر من ستة شهور أو سبعة فى تسجيل فصول هذه القصة تسجيلا نهائياً . على أنى لم أكن أكتب إلا فى أوقات فراغى ؛ وقد أخذت أوقات الفراغ هذه فى التضاؤل بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، واستؤنفت الأعمال بهمة ونشاط

على أن فصول القصة لم تُكتَب تباعاً ، وإنما كنت أشرع فى الكتابة حالما أحس الرغبة فى ذلك ، فأثبت الحلقات الضرورية ، بحيث أصل بين الصفحات كما بدا لى أنها قد انفصل بعضها عن بعض . وهذه الطريقة — إذا جازت تسميتها كذلك — كانت كل ما فى وسعى ، لأنه لم تكن لدى أية فكرة إنشائية عن فن القصة ، بل لم يكن وجود مثل هذه الفكرة ليخطر ببالى . وإنى لأتصور أن قليلا من قصص الناشئة قد كتب بمثل ما كتبت به حرارة العاطفة . ولقد استمرأتُ الكتابة بسرعة وبقلة ! كنت : وكان مضحكا أن أقرأ الفصول الطوال على أصدقائى فى صوت مرتفع ؛ وكان من هؤلاء الأصدقاء واحدة فقط تتنبأ لقصتى بصلاحيتها للنشر ، وزعما لم يكن بين الباقين من آمن بصحة نبوءتها !

وفرغت من الكتابة فى « إيستر » عام ١٩١٦ حين كنت معتزمة الرحيل ، وقد كنت أؤمل أن أنتهى من أمرها قبل رحيلى ، وإنى لأذكر جيداً كيف كتبت بعض الصفحات الأخيرة وأنا جاثية إلى منضدة ، بسبب عـدم وجود مقاعد ساعتذاك فى بيت الغرباء الذى كنت فيه ، وما كدت أنتهى من الكتابة على هذا النحو حتى هرعت فلحقت القطار

* * *

وإنى الآن لأستدعى ذكريات صفحات هذه القصة بعد فراغى من كتابتها بقليل، وكيف كنت لا أظن كلة واحدة منها تحتمل الحذف ، فضلاً عن جريان القلم الأحمر على نصف صفحة كاملة مثلاً . وكذلك كنت شديدة الاعتداد بهذا العمل الأدبى الذى كتبته بأقصى سرعة تسمح بها حركة القلم على الورق ، حتى أننى كنت شديدة الاعتقاد بأن قصتى فوق التنقيح وفوق التصحيح

على أنى لا أزال حتى اليوم ، وبعد احتراف الكتابة عشرين عاماً ونيفاً ، كما كنت وثيقة الايمان بأن إعداد الفصول للنشر إعداداً نهائياً هو أصعب مراحل الانتاج الأدبى على وجه الاطلاق

ومن الخير أن اسمى المستعار الذى ظهرت به أعمالى الأولى كان من اقتراح شقيقى ولكنه لم يكن من ابتداعها ، إذ كان اختراع قصصى معاصر شهير ، ولكننى وفقت إلى توقيع حرفى حسن هو « ا . م » ولم أكن أقصد به أن يخطىء الناس فيظنونى رجلا ولكننى استعملته متابعة لكاتب معاصر كنت ولا أزال أقدمه على سواه .

ونصحت لى إحدى الصديقات بالبحث عن ناشر ؛ ولم تلبث هي أن قدمت قصتى إلى « ويليام هاينمان » فوافق على نشرها على الفور . ولا أزال أحتفظ بذلك الخطاب الرقيق الذي بعث به إلى حينذاك .

ولم يكن لأبي علم بأنني وضعت كتاباً . ولقد كان عندما واحد من الأقرباء لا يفقه الأدب حين بلغتها برقية مني بأن كتابي قد وافق عليه الناشر ! وبعد ساعة واحدة ، وصلتها برقية أخرى علق عليها ذلك القريب الجاهل بقوله لأبي « لعلها تخبرك أن الأكاديمية الملوكية قد قبلت إحدي لوحاتها الزيتية » ؟ !

وعلى أي حال، فقد كان اسم «زيللا» من وضع مكتب الناشر « هاينمان » وربما كان على التحقيق من وضع المستر «ف. تومسون» الذى كان يقرأ له كل ما يراد نشره !

وظهر الكتاب فى مارس ١٩١٧ . وصادف ظهوره نجاحاً فائقاً كباكورة أعمالى القصصية . وقد ظل الناشر نفسه يجهل اسمى الحقيق حيناً طويلا بعد ذلك

ومما هو جدير بالاشارة أن المستر « هاينمان » قد تفضل — بعد ظهور الكتاب — فدعاني إلى الغداء ، حيث قدمنى إلى ثلاثة من مشاهير الأدباء المعاصرين ، وهذا ما لم يكن يطمع فى مثله ولا بعضه أي قصاص مبتدئ ! ولكننى كنت صغيرة السن جداً كما كنت قليلة الخبرة بأمور الحياة الأدبية ، فلم أومن بهذا الفضل ! بل إن غداء المستر « هاينمان » قد ظل أول وآخر عهدى بالمجتمعات الأدبية إلي الآن !

* * *

وكلما أعدت قراءة قصتي الأولى « زيللا » بعد الطبع ، استرعت نظري فيها جدة خاصة ؛ أظنها الطابع المميز لمعظم الأعمال القصصية الأولى ، كما تسترعى انتباهي أيضاً طريقة كتابتها التى أصبحت بها بعيدة العهد . والواقع أنها لم تكن قصة بالمعنى الصحيح بقدر ما كانت تسجيلاً تعقُّبياً لما تميزت به البطلة من ضعف طبيعى جر على حياتها أسوأ العواقب . على أنى أعتقد بأن استعراض شخصياتها لم يكن رديئاً . وكما أسلفت ، أرى أن ضعف هذه القصة ينحصر فى طريقة بنائها ، وفى انعدام العقدة الفنية فيها ، بحيث أنها كان من الجائز أن تختتم فى منتصف فصولها ، دون الاستطراد إلى مئات من الصفحات الأخرى .

ولكن . . . بعد أن تم كل شيء أحسست بشعور دافق من الارتياح يغمرنى . ولست أنسى أبداً تلك اللحظة السعيدة التي تسلمت فيها النسخ الخمس الأولى من قصتى هدية من الناشر ... ! !

المترجم
احمد فتحى

عبد المعطى المسيرى

يقدم كتابه الجديد :

الظامئـــــون

الظامئون إلى الحب ، الظامئون إلى الجمال ، الظامئون إلى الفن ، الظامئون إلى الحق ، الظامئون إلى المعرفة ، الظامئون إلى اللقمة ؟ .

علاج لمشاكل هؤلاء . وصور من حياتهم

مقدمة رائعة للقصصى العظيم

الأستاذ محمود تيمور بك

رسوم رمزية للأستاذين بدر أمين ، وشفيق رزق الله

الثمن ٥ قروش صاغ : يطلب الكتاب من مؤلفه :

عبد المعطى المسيري قهوة رمسيس بدمنهور ومن مكتبتى :

النهضة المصرية بمصر وفكتوريا بالاسكندرية